مدخل إلى نظرية التقمص

لا بد لنا قبل الدخول إلى نظرية التقمص (النسخ، أو التجسد) من التعرف على بعض السمات الرئيسة لفلسفة التوحيد، التي قامت بها طائفة من المسلمين الموحدين (الدروز)، ولنأخذ مثالاً، كي نكتشف العلاقة بين هذه الفلسفة، والتقمص لتسهيل الأمر على القارئ الذي أحترم معرفته، ارتأيت طريقة السؤال والجواب أسلوباً لتقديم حيز من هذا الفكر.

س ١ـ ما هو التنزيه، والتجريد في نظر الموحدين؟

ج ـ لقد تجاوز التوحيد في هذا المفهوم جميع الفلاسفة، بما فيهم أرسطو، حيث قالوا بأن الله جل جلاله هو علة العلل بينما قال الموحدون أن الله هو مُعِل علة العلل، وبرهنوا على ذلك. ولا مجال في بحثنا هذا عن التقمص الغوص في ذلك. إن التوحيد يرى الله الواحد، الأحد، من وراء الوجود، ومن

وراء الصفات. أي لا يُعرَّف، ولا يوصف، ولا يوجد في مكان، ولا يخلو منه مكان، وكماله الذي نفهمه بعض الفهم، ينفي النقص عنه، فنحن لا نستطيع القول، أنه لا يكون هكذا، أو نقول هكذا يكون.

وقد تتصل الروح بخالقها، عند تجاوز الروح للجسد، ولكنها حالة لا تقبل التأمل، والتفكير، فإذا انقضت، فقد يثوب الإنسان بعدها إلى العقل الذي ينحدر من مقام الإله الأحد إلى مقام العقل. حيث لا ينشغل الله بغير ذاته، لأنه مستغنٍ بذاته كل الاستغناء.

س ٢. ما هي درجات الخلق؟

ج ـ لقد أبدع الله العقل، وخلق النفس (الروح) من العقل. من هذا التأمل ندرك أن العقل، لا يدرك الأحد (الخالق) بل إنه يعقل، ويدرك ذاته، فينشأ

من عقله، ولذاته، عقل دونه وهي النفس، أي القوة التي أبدعت المحسوسات.

إن صدور الفكر عن العقل لا ينقصه، فلا ينطبق هذا النقص إلا على الجسم الذي يصدر عنه جسم آخر، حيث يخرج منه شيء، أي الآخذ من المعطي، وهنا ينقص بانتقاله. فالمرتبة الأولى هي الخالق، والثانية هي العقل، والثالثة هي النفس (الروح)، والرابعة هي المحسوسات (الهيولى)، فتنسجم النفس مع العقل في مقام التجريد، أما الهيولى فتبتعد عن التنزيه، والتجريد. وتهبط الموجودات طبقة، طبقة، حتى تتحدر إلى الهيولى التي لا نفس معها.

س ٣. ما هي سمات العقل؟

ج - لقد أظهر الله من نوره الشعشعاني، صورة كاملة صافية هي الإرادة، وهي نواة كل شيء، وبها تكوينه، وكانت تلك الصورة هي العقل، فكان العقل كاملاً بالنور، تاماً بالفعل اجتمعت

فيه كل الطبائع، وأحصي فيه كل ما هو كائن إلى ما لا نهاية. إنه علة العلل، عقل كامل، كلي بالقوة، تام بالفعل، حليم بالسكون، قادر بالحركة، وهو مركز دائرة الخلق. لطيف، شفاف، مدبر لجميع العاملين، وهو الأصل لجميع المخلوقات، والكائنات، يقتبسون من نوره، ويستقون من بحره، يسيرون على أحكامه، ويغذون من إلهامه، وهو نور الله، وإرادته، وحلمه، وتواضعه. إنه يحل في أسرار جميع الكائنات على احتجاب كلي، أو جزئي، أو متفاوت لا يبلغ أقصاه إلا في الإنسان حيث يتألق جوهرة مشعة بوصفه أرفع الكائنات، وأقربها إلى استيعاب النور.

وللعقل طبائع أربعة، وله أضداد أربعة:

من النور أبدع الظلمة.

ومن الإرادة أبدع المعاناة.

ومن الحلم أبدع الجهل.

ومن التواضع أبدع الاستكبار.

ومن هذه الطبائع المحمودة، والمذمومة، تكونت النفس.

يقول أبو بكر الرازي: (أول مخلوقات الله، نور روحاني خالص، وبسيط، هو العقل، صدر عن الباري تعالى، هو الأصل الذي تتقوم منه النفوس، وهي جواهر روحانية بسيطة، صادرة عن العالم العلوي. بالعقل، والنور الفائض من الباري تعالى، نشأت النفوس، وتبع النور ظل، خلقت منه النفوس الحيوانية، خادمة النفوس الناطقة.)

لقد أخذ حكماء حران (الصابئة) عن أفلوطين الذي عاش بينهم الأعوام (٢٠٤- ٢٥٤) - ما جاء في كتاب التاسوعات.

(إنه يصدر عن الواحد الخير، العقل "النوس" كصدور الإشعاع عن قرص الشمس. ولما كان العقل عاقلاً ومعقولاً. أي يعقل نفسه، صدرت عنه

النفس الكلية وهي مبدأ الوحدة في الكون، فمرتبة النفس في الحلقة المتوسطة بين عالم المعقولات، وعالم المحسوسات الذي صدر عنها وبالتالي إنها سفير القدرة، وإن وجود العالم مرتهن ببقاء الباري تعالى، فما دام الفيض، والجود، والعطاء متواتراً متصلاً، استمر وجود العالم، وأن الباري لا يجوز عليه خبر موجب).

ومع ذلك فالعقل الكلي نور لا ظلمة فيه، والمعرفة عنده لا شبهة فيها، والمشاهدة لا حجاب دونها، والطاعة لا معصية معها، والدرجة لا درجة فوقها، وقوته الفياضة هي قوة القبول والاطلاع، والصور، وبقوة النور، والفيض شمل الله جميع المخلوقات بالعقل، ومنه برزت سائر المخلوقات.

أما نحن البشر فلنا عقلنا الجزئي الذي هو جزء من الكلي والقوة العقلية الموهوبة لنا، هو في قدرتنا على تحكيم العقل في سلوكنا، وأعمالنا، ولكي

نستنير بنور العقل الذي لا ترد أحكامه، لأنها أحكام القوة المدركة، الصافية المنارة بنور الله ومن نور العقل نميز بين الخير، والشر من الأعمال.

ورد في صحيح البخاري عن الرسول (صلعم) قوله: (أول ما خلق الله القلم (العقل) فقال له سبحانه، وتعالى: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أعز علي منك، بك أثيب، وبك أعاقب).

س٤ ـ ما هي سمات النفس؟

ج ـ أورد المرزوقي الأصفهاني، عبارة عن ثابت بن قره الحراني تقول (إن النفس تفيض منها الحياة كفيض النور مترجحة بين النور، والعقل، كالإنسان الذي يصحو تارة ويغفو تارة. ذلك أنها إذا نظرت نحو الباري الذي هو معل العقل، عقلت، وإذا نظرت نحو الهيولى، التي هي جهل محض، غفلت، وسهت.)

لقد صدرت النفس الفردية، عن النفس الكلية، والنفس الفردية ذات اتجاهات. فهي باتجاهها إلى المحسوسات والأجساد تصبح حيوانية، شهوانية، حيث الشر في العالم هي الهيولى لأنها سالبة، تهبط بالمعقولات، والروحيات التي تلبسها، لذلك على النفس في كل أدوارها أن تجاهد، وتنتصر على شهواتها، فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ووقاهم عذاب الجحيم) س الدخان آ ٥٥. وإن لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى، ولقيت جزاءها على الذنوب التي اقترفتها في حياتها السابقة وحتى توضع في خيار الخير، أو الشر يقول سقراط: إذا كانت كل الأشياء التي من طبيعتها الحياة أو التي لها بعض صفات الحياة يجب أن تموت، وبعد أن تموت تظل باقية على صورة الموت، ولن تعود للحياة مرة أخرى.. إذاً.. كل شيء سوف

ينتهي إلى الموت، ولن يبقى شيء على قيد الحياة، فما هي النتيجة التي يمكن أن تكون؟

ويقول أُفيد (٤٣ ـ ١٨ق.م) إن الموت كما يطلق عليه إن هو إلا مادة قديمة.. تتسربل هيئة جديدة، والروح تظل كما هي... يقذف بها من مسكن إلى آخر، وفي ثوب مغاير والشكل هو الذي يتغير.

ويقول أفلاطون: (إن التذكر هو التزام طبيعي لذكرى حياة ماضية.. فالنفس لها بداية، والإنسان ليس له بداية فحياته الحاضرة ما هي إلا حالة متجددة للنفس... إنها كانت تعيش في مكان آخر، وفي ظروف مختلفة.)

ومن العلماء المسلمين كثر ممن كانوا يؤيدون العودة للتجسد أمثال: ابن قابوس، وجعفر القاضي، ومحمد بن زكريا والرازي، والحسين بن منصور (الحلاج) ومحي الدين بن عربي، والسهروردي، وأبو يعقوب المزايلي، ومحمد بن علي الشلغاني

المعروف بابن أبي الغرائز، ومن سندهم آيات قرآنية منها (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك، فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك) في قوله تعالى: (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، ومن الأنعام أزواجاً يذرأكم فيه). وذكر الدواني في شرح كتاب هياكل النور من أن التناسخ ينقسم إلى أربعة أقسام:

١. النسخ: اتخاذ الروح، بعد فراق الجسد بالموت، جسداً إنسانياً آخر. عن طريق الحلول في الجنين.

٢. المسخ: دخول الروح في جسد الحيوان.

٣. الفسخ: حلول الروح في النبات.

٤. الرسخ: حلول الروح في الجماد.

ويقرر القديس جريجوري: إنها ضرورة حتمية أن النفس يجب أن تعالج لتبرأ، وتتطهر، وإذا لم يتم هذا في أثناء حياتها على الأرض فلا بد أن يتم ذلك في حيوانات أخرى.

وتساءل القديس أوغسطين ٣٥٤ – ٤٣٠ م في اعترافاته: ألم أولد في جسد آخر، أو في مكان آخر.. قبل دخولي رحم أمي؟. ومن هنا جاءت نظرية التقمص من أجل تحقيق العدل الإلهي في يوم الحساب.

إن نظرية خلود الروح، قديمة جداً، قال بها قدماء المصريين وفلاسفة اليونان، وحكماء الهنود، واهتم بها الباحثون في العصر الحديث، فألفوا حولها الكتب العديدة وآمن بها العديد من العلماء في أوروبا، وأمريكا، ومجموعات عديدة من البشر، فانتشرت الجمعيات، والنوادي التي تؤمن بالتقمص تحقيقاً للعدل الإلهي.

والتقمص أو الولادة الأخرى، قالت بها جميع الأديان القديمة منها، والحديثة، فوردت في الديانة الهندوسية، ديانة الهند الرئيسية، والجينية التي نشأت في الهند في القرن السادس قبل الميلاد، والتي

ترى أن بالإمكان إدراك جوهر الروح بعد سلسلة من الحيوات تصل إلى النيرفانا متحررة من أي قيد، والديانة البرهمانية وهي النظام الديني، والاجتماعي الهندوسي، وهي أسمى طبقة في الهند، والديانة البوذية وهي نظام فلسفي أخلاقي ديني يتلخص في أن الألم جزء من طبيعة الحياة.. باستطاعة المرء الخلاص منه بالتطهير الذاتي العقلي، والأخلاقي مع حقائق أعلنها بوذا وهي أن الوجود ألم مبعثه الشهوة، والرغبة وللتخلص منها باتباع طريق رسمته البوذية يتكون من ثماني نقاط تتوجه إلى: الصحة، والصواب في العقيدة، والعزيمة والكلام، والسلوك، وبذل المجهود، والتعقل (التأمل)، والديانة الزرادشتية المنسوبة إلى الحكيم زرادشت الذي يقال أنه عاش في القرن الرابع قبل الميلاد.. عرفه العرب وسموه الحكيم، وتوجهاتها العامة تدنو من فكرة التوحيد.. حيث تدعو إلى

عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقول بالبعث، وبالحساب في اليوم الآخر، وبالوعد، والوعيد كما تؤمن بظهور مخلص يولد من عذراء. وكذلك الديانة الغنوصية وهي فلسفة دينية ظهرت في القرون الأولى لظهور المسيحية كردة فعل ضدها.. وظهر في القرن الثاني الميلادي غنوصيون مشهورون أمثال باسيليوس وفالنتين، ومرقيون، وتهدف إلى إدراك كنه الأسرار الربانية، وكذلك الديانة المانوية أتباع ماني بن فاتك الفارسي الذي دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنائية قوامها الصراع بين النور، والظلمة. ومن ثم الديانات الحديثة المتمثلة في التوراة والإنجيل، والقرآن التي تحدثت في آيات عديدة عن عودة الروح، وإن أجمع عدد من العلماء على تفسيرها في غير ذلك المعنى، وقصة السيد المسيح مع الأطفال تؤكد ذلك عندما حاول أحد حواريه إبعادهم

عنه، فقال له: (الحق، الحق.. أقول لكم، إن لم تولدوا ثانية، وتصيروا مثل هؤلاء الأطفال، لن تدخلوا ملكوت السماوات).

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن ذلك: (كيف تكفرون بالله، وكنتم أمواتاً، فأحياكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون) سورة البقرة، الآية ٢٩ . ومن سورة نوح (والله أنبتكم من الأرض إنباتاً، ثم يعيدكم فيها، ويخرجكم إخراجاً) ومن سورة البقرة (لا ينفع النفس إيمانها، إن لم تكن آمنت من قبل).

(قل الله يبدئ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) سورة يونس آية ٢٤. (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) سورة طه آية ٥٥. (أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده. إن ذلك على الله يسير) سورة العنكبوت آ ٥٩.

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم) سورة الدخان. آية ٥٥.

obeikandl.com